عروس النيـــل

[رسالة مهداة إلى روح الأب العظيم عبد السلام مبارك]

للدكتور زكى مبارك

في هذه السنة تخلّف النيل ، وتخوّفَ الناس عواقب الصدود من النهر الوفيّ المحبوب ، فتذكرتُ ما وقع في أيام سيزوستريس ، وتمنيت لو رجعنا إلى عهود الوثنية ، فأهدينا إليه صبية ، لينشرح فيمود !

وقبل أن أسوق الحديث عن عروس النيل أذكر أشياء من الحياة المصرية قبل إنشاء خزان أسوان ، وهي حياة تختلف عن حياة اليوم كل الاختلاف

لم يكن النيل يغمر أرض مصر أكثر من شهرين ، ثم ينحسر بعد أن يضيع منه في البحر ما يضيع ، ولكنه مع ذلك كان يترك ثروة عظيمة من المياه الجوفية : المياه المخزونة في جوف الأرض ، وكانت تلك المياه زاد المصريين إلى أن يعود النيل من جديد

ولهذه الأسباب كانت مصر أقدم أمة أجادت طيّ الآبار والسواقي ، فكان في كل بيت بئر ، وفي كل مزرعة ساقية ، وكان في منازل المياسير ما يسمّى بالصهاريج ، وهي أحواض مسحورة تحفظ كميات عظيمة من الماء الزلال

والذين زاروا المعابد الفرعونية يذكرون أن بها آباراً في أكثر الجوانب ، وكذلك كان الحال في العهد الإسلامي ، فلا تزال في منزل السحيمي بالقاهرة ساقية ، وإن طال على هجرها الزمان

وغيبة النيل شهوراً طوالاً من كل سنة لم تكن تؤذي المصريين بعد أن أجادوا طيّ الآبار والسواقي ، ولو شئت لقلت إن غيبة النيل كانت أداة من أدوات التحصين ، فقد كانت المواصلات في العهود القديمة تعتمد على الملاحة ، وكان من العسير على من يغزو مصر أن يتجه إلى الجنوب مع تعذر الملاحة في النيل ، بسبب الجفاف أيام التحاريق ، وخوفاً من عنف التيار أيام الفيضان ... وهذا في نظري أهمّ الأسباب في ميل الفراعنة إلى أن تكون عواصمهم بالصعيد ، فقد كان لهذا المعنى أمنع من نواصي الجبال

هل قرأتم في أي كتاب أن الفراعنة أجادوا تمهيد الطرُق الزراعية ؟

لقد تركوا هذا الجانب من النظام عامدين متعمدين ، ليكون التوغل في بلادهم باباً من العناء

وبمناسبة الآبار أذكر ما شهدت منها بمعبد الكرنك ، فقد كان المهندسون يثقبون الأحجار الكبيرة بنسبة معلومة ،

واستمر العرب على ما ألفوا من سنن الصيد في الجاهلية ؛ وزادوا ضروباً من السلاح ومن الحيوان الذي يستعينون به على الصيد . زادوا قوس البندق وغيرها ، وعلموا الفهود وكثيراً من الطير الجارحة . واحتفى الأمراء والكبراء بالصيد وأعدوا له عُدده من الرجال والحيوان والسلاح . وعنوا بتربية الحيوان وتضريته ، ووضعت الكتب في هذا الفن الذي عرف باسم البيزرة أخذاً من كلمة « بازيار » الفارسية ومعناها القيم على البازي أو البزاة . ولكشاجم الشاعر كتاب المصايد والمطارد . وبالرجوع إلى هذه الكتب أو كتب الأدب الجامعة مثل نهاية الأرب يتبين عناية العرب بهذا الفن وولع الشعراء به

افتن الشعراء ثم الكتاب في وصف الصيد وآلاته وحيوانه وحركاته ووصف المصايد . وقد استقل وصف الصيد في الأراجيز والقصائد التي عرفت بالطرديات فصار فناً أدبياً متميزاً .

ومن الشعراء المفتنين فيه أبو نواس . نظم فيه تسعاً وعشرين أرجوزة وأربع قصائد . وأبدع في وصف كلاب الصيد وطيره . قال الجاحظ في كتاب الحيوان عن أبي نواس :

وأنا كتبت لك رجزه في هذا الباب لأنه كان عالماً راوية . وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها مالا يعرفه الأعراب وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه . هذا مع جودة الطبع وجودة السبك ، والحذق بالصنعة . وإن تأملت شعره فضلته

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

ثم يضعون حجراً فوق حجر ، كما يوضع الطوق فوق الطوق ، لتصير الآبار فى أمان من الاختلال

وكان للآبار فى مصر منزلة شعرية تفرق المنزلة النفسية ، فقد كان مفهوماً عند الجمهور أن لكل بئر ملائكة تختلف باختلاف المكان ، فهذا البئر مسكون بأرواح لطاف ، وذاك البئر مسكون بأرواح كثاف ، وباختلاف الروح يختلف طعم الماء فى الملوحة والعذوبة والكدر والصفاء[1]

وكانت هذه العقيدة ملحوظة فى تقدير السواق من الوجهة الروحية ، فلا خطر من نزول هذه الساقية لأنها مسكونة بأرواح خيِّرة ، أما تلك الساقية فمسكونة بأرواح شقية ، ألم تسمعوا أنها قتلت فلاناً حين تجاسر على نزولها بالليل ؟

ومياه الآبار والسواقى باردة فى الصيف وحارّة فى الشتاء ، فما سبب هذه الظاهرة الغريبة ؟

يقول العلم إن مياه الآبار والسواقى بعيدة عن التأثر بالأحوال الجوية ، فهى لذلك باردة فى الصيف وحارة فى الشتاء ، فهل كان هذا هو الرأى عند أهالى الريف ؟

كان الرأى عندهم أن للأرض وجهاً آخر ، وجهاً يعانى برد الشتاء حين نعانى حر الصيف ، ويعانى حرّ الصيف حين نعانى برد الشتاء ، وكان مفهوماً أن السِّيخ الذى يفجِّر العيون فى الآبار والسواقى يخرق القبة القائمة بيننا وبين البحار التى تسقى الوجه الثانى من الأرض ، وكان ذلك هو السر فى أن يختلف الماء بالحرارة والبرودة باختلاف الجو هنا وهناك

هذه الأخيلة الطريفة كانت الزاد لأهل الريف منذ زمن وأزمان ، والفلاّح المصرىُّ شاعرٌ بالفطرة والطبع ، فما كانت الدنيا عنده إلا ميدان قتال بين الملائكة والشياطين

إن الأمم لا تعرف الأساطير إلا فى عهود الفتوّة ، فإذا اكتهلت عرفت الحقائق ، وسعادة الكهول بالحقائق لا تقاس إلى سعادة الفتيان بالأباطيل

كان أهل الريف سعداء بالجهل ، لأنه طوّف بهم فى آفاق شعرية ، فما فائدة العلم الذى يواجه أهله بحقائق أقسى من الجلاميد ؟

وهل أسعدَ العلمُ كبار أهله حتى يسعد صغار الفلاحين ؟

ما القيمة الصحيحة لأن نعرف أن الزهرة مجموعة جراثيم ، وهى فى نظر الجهل خدٌّ وهّاج ؟

أين من يردنى إلى العهد الذى كنت فيه أجهل الجاهلين ؟

ليت الحوادثَ باعتْنى الذى أخذت

منى بحلمى الذى أعطت وتجربى

عروس النيل

تضاربت الأقوال فى الأسطورة الشعرية ، أسطورة عروس النيل ، وانتهى الأمر بوزارة المعارف إلى حذفها من الكتب المدرسية ، لتصون الأبناء من السخرية بالأجداد . ولكنى مع هذا أرى من الخير أن يعرف أبناؤنا جميع الأساطير ، ليعرفوا حيرة الإنسانية بين الحقيقة والخيال

وسأسوق هذه الأسطورة كما رأيتها فى كتاب مخطوط لمؤلف مجهول ، ففيها طرافة فنية ، وفيها لفتات جديرة بالتسجيل :

فى العام الثالث من حكم رمسيس الثانى وهو عام ١٣٢٧ قبل الميلاد تخلّف النيل ، فلم تظهر طلائعه فى شهر أبيب ولا فى شهر مِسْرَى ، وامتدّ به التخلف إلى شهر توت ، فجأر المصريون بالشكاية ، وتجمهروا حول قصر الملك صارخين ضارعين

وماذا يصنع الملك ؟ ماذا يصنع والشعب يطالبه بما لا يطيق ؟ هل يصدّق الخرافة التى ذاعت فى ذلك الوقت عن أسر النيل بأمر ملك الأحباش ؟ وهل يستطيع ملك أن يأسر النيل وهو ملك الملوك ؟

إن النيل لا يَقهره قاهر ، إن أراد الوفاء ، فما الذى صدّه عن الوفاء ؟

ثم دعا الملك أقطاب السِّحْرة ليرى ما عندهم فى حل هذه المعضلة ، فكان هذا الحوار الطريف :

الملك — ماذا ترون فى تخلف النيل ؟ أتظنون كما يظن الجمهور أنه فى أسر ملك الأحباش ، وأن من الواجب أن نجرّد حملة لتأديب ذلك الطاغية ؟

الساحر الأول — وماذا يملك عاهل الحبشة من أمر النيل ؟

الساحر الثانى — هو يملك الخاتم السِّحرى ؟

الملك — وما ذلك الخاتم ؟

الساحر الثالث — هو خرافة منقولة عن أساطير الأولين !

(١) البئر فى لغة أهل المنوفية مذكر لا مؤنث

الساحر الثانى — أتكذبنى يا زميلى فى حضرة جلالة الملك ؟

الساحر الأول — إن تفضل جلالة الملك فأنا أفضى إليه بالسر فى تخلف النيل

الملك — من أجل هذا دعوتك

الساحر الأول — النيل عاشق غضبان

الساحر الثانى — النيل عاشق ؟ ما سمعنا بمثل هذا الكلام قبل اليوم !

الساحر الأول — أتظن أن النيل يوحى العشق وهو يجهل العشق ؟

الساحر الثانى — العشق يصدر عن أهل الذوق ، والنيل بلا ذوق

الساحر الأول — وما برهانك على أن النيل بلا ذوق ؟

الساحر الثانى — لأنه لا يستقيم فى سيره أبداً ، ولو كان من أصحاب الأذواق لعرف قيمة الطريق المستقيم ، وهو كما ترى غاية فى التخبط والاعوجاج

الساحر الرابع — لولا هيبة الملك لرميتك بالجهل

الملك — هيبة الملك لا تمنع من كلمة الحق

الساحر الرابع — إن زميلى يطالب النيل باستقامة الضعفاء وليس النيل بالضعيف

الملك — ماذا تريد أن تقول ؟

الساحر الرابع — أريد أن أقول إن استقامة الأقوياء فى ضمائرهم لا فى ظواهرهم ، واستقامة النيل تتمثل فى ذلك الاعوجاج

الملك — إن كلامك يحتاج إلى توضيح

الساحر الرابع — لن أوضح كلامى لجلالة الملك ، لأنه أقدر الملوك على فهم الرموز والتلاميح

الملك — أوضح لزميلك

الساحر الرابع — ما كان لى بزميل ، وهو بين السحرة دخيل .

الملك — دَعُوا هذه اللجاجة وارجعوا إلى الحديث عن العاشق الغضبان

الساحر الأول — إن النيل لا يأخذ زاده من العواطف

الملك — كيف تقول هذا والصبايا يتهادين إليه فى الفجرات والمصريات ، وقد سقط الفصيف ، وغفل الرقيب ؟

الساحر الأول — هو ذلك يا جلالة الملك ، ولكن الجمال المصرى جمال لئيم ؟

الملك — ما هذا الذى تقول ؟

الساحر الأول — المقام لا يسمح بالرياء ، وكيف ترانى سيزوستريس وهو أصرح الملوك ؟

الملك — هات ما عندك يا كبير السحرة ، فقلبى مُصغٍ إليك

الساحر الأول — أنا رأيت وما سمعت

الملك — وماذا رأيت ؟

الساحر الأول — رأيت النيل هام بصبية ...

الملك — ثم ؟

الساحر الأول — ثم مد إليها ذراع الموج ليجذبها إليه

الملك — ثم ماذا ؟

الساحر الأول — ثم نفرت الصبية ولاذت بالشط ، فهو لذلك عاتب وغضبان

الملك — العلم الذى ورثناه عن الكهنة يحصر الحياة فى النبات والحيوان . فكيف يهيم النيل بصبية وهو ليس من الأحياء ؟

الساحر الأول — إن الله جعل من الماء كل شىء حىّ ، فكيف يكون الماء سبب الحياة إذا كان من الأموات ؟

الملك — ومعنى هذا أن الماء يَعْشَق ؟

الساحر الأول — ويُعشَق

الملك — ومن عاشق الماء ؟

الساحر الأول — تحدث عنه شاعرنا بنتاءور حين قال فى الصهباء :

مقطَّبةٌ ما لم يزرها مزاجُها ... فإن زارها جاء التبسُّم والبِشْرُ

فيا عجباً للدهر لم يُخلِ مُهجةً ... من العشق حتى الماء يعشقه الخمر

الملك — لن أكذب الكهنة فى قولهم بأن الماء جماد

الساحر الأول — أنا أوافق مولاى على أن الماء جماد ، ولكنى أرجوه أن يتفضل فيتذكر أخطار الجمال المصرى

الملك — وما أخطار ذلك الجمال ؟

الساحر الأول — لو صوّب الجمال المصرى ناره إلى هضاب الحبشة لأحالها إلى قطرات من الماء المبذول بغير حساب

الملك — وترى أن نداعب النيل بالجمال ؟

الساحر الأول — أرى أن يكون للنيل فى مصر هوًى وميعاد ، فما يعود حتى إلى بلد إلا إن كانت له فيه أهواء ومواعيد

الملك — وعند النيل هذا الذوق ؟

الساحر الأول — وعنده الحقد على أهل العقوق !

الملك — وماذا يقول الشعب إن أقررنا مبدأ الاعتراف بالعشق ؟

الساحر الأول — سيقول الشعب إنه يعيش تحت راية العدل

الملك — والعشق عدل ؟

الساحر الأول — العشق من نتائج العدل

الملك — أوضح ثم أوضح يا أعظم حكيم رآه سيزوستريس

الساحر الأول — العشق يا مولاى هو انجذاب روح إلى روح ، ولا صفاء بين عاشق ومعشوق إلا بحفظ الحقوق ، ولو وجّه العاشق إلى معشوقه كلمة تنقض من جماله لكان الفراق إلى آخر الزمان

الملك — أهذا هو العدل عندك يا كبير السحرة ؟

الساحر الأول — العدل هو مصدر الحب لجلالة الملك ، ولولا قولك بأن شعبك خُلق للسيادة على الأقطار الأفريقية والآسيوية لتخاذل الشعب عما أردت من الغزوات والفتوحات

الملك — الشعب يحبنى ؟

الساحر الأول — الشعب يحبك لأنك تحبه ، وأهل مصر يقولون : « إن أحببتك حية فتطوّق بها » ، ولهذه اللفتة صلة بوجود الحيات حول تيجان الفراعين !

الملك — أنت ساحر ، يا ساحر !

الساحر الأول — وعن لطف جلالة الملك أخذنا السحر والفتون

الملك — عنكم نأخذ طرائف المعانى يا أدباء وادى النيل ، وعنكم تلقّى الروح فلاسفة اليونان .

الساحر الأول — ماذا يرى جلالة الملك فى اجتذاب العاشق الغضبان ؟

الملك — آه ثم آه من بلاد لا يستقيم فيها شىء بغير الحب والجمال !

الساحر الأول — تلك طبيعة بلادك يا مولاى

الملك — إذن ؟

الساحر الأول — وإذن نترضّى النيل بصبية مليحة لنروضه على الوفاء

الملك — صبية تغرق فتموت ؟

الساحر الأول — إن من يَصدُق فى حب النيل لا يغرق ولا يموت

الملك — وما ذا تكون الحال إذا ترضّينا النيل بصبية مليحة ثم أصر على الجفاء ؟

الساحر الأول — نظرة واحدة من فتاة مصرية تزلزل رواسى الجبال

الملك — وأنا أرفض أن يكون الجمال المصرى من أدوات الاستغلال

الساحر الأول — الصبية المنشودة لن تعانق غير أبيها ، والنيل هو الأب الأول لجميع الأبناء بهذه البلاد

ثم نادى المنادى فى اليوم التالى بأن النيل لن يعود إلا إن ضمن الظفر بعروس خمرية اللون ، عروس عيونها عسلية ، عروس تؤمن بأن الفناء فى الواجب هو طريق الخلود

وبعد يومين اثنين تجمعت عرائس تفوق الإحصاء ، فما يمكن أن تخلو مصر فى أى وقت من عرائس جميلة تُعدّ بالألوف وألوف الألوف . فوقف سيزوستريس وقفة الحيران ، فى تخيّر ما يشتهى العاشق الغضبان

ثم التفت فرأى صبية تُلقى بنفسها فى اليم . وما كاد يتبيّن هُويّة الصبية حتى رأى النيل يتغانى بالأمواج فى كل مكان

مَن تلك الصبية ؟ لم يستطع أن يعرف ، وبهذا كانت مصر أول من ابتكر فكرة الجندى المجهول

ومضى سيزوستريس إلى المعبد فترنم بصلوات على روح تلك المليحة السمراء ، وسمع النيل صلواته فقال : الترحم لا يكون إلا على ميت ، ولا يموت من يكرم النيل

وتسامع المصريون بأخبار سيزستريس وهو رمسيس الثانى فأقاموا له فى كل بلد عدداً من التماثيل ، ودام ملكه ستين سنة أو تزيد بفضل عروس النيل

أما بعد فأنا لا أدعو وزير الأشغال إلى استعطاف النيل بضحايا